الغض يأنس بذلك اللحن الطروب ، لحن الأمومة الخالد ، وعاشت في حدائقها تترسل عليها تلك الأنغام العذبة الرائقة كأنها سواكب الطل في الأسحار تلثم نابت الزهر ، أو كأنها مطالع الأضواء تتداعب عصفورا في وكره لتنفض عنه خدر النعاس ، وتبعث فيه يقظة النهار الجديد » .

وأحسن الكاتب في اختيار الجو الذي يصلح مسرحا لتلك العاطفة الأمومية في عهد الطفولة ، جو الدمى والعرائس ، وبرع في نقل إحساسات الطفلة ، وهي تضفي على تلك الجوامد خفقة الحياة ، حتى لكأننا نعيش مع العرائس والدمى ، نحسبها من الأحياء . فالعروس كانت تقع في يد الطفلة : « دمية صامتة ، لا حس فيها ولا حراك ، فتشرع إليها تتحدث ، وتقبل عليها تتعرف ، فكأنما تنفخ فيها من روحها ، ليستكمل خلقها ، فإذا الدمية الصموت ناطقة ، وإذا العروس الجامدة خلق آخر يشعر ويحس » .

ولا يقف الكاتب في تصوير موقف الطفلة من العرائس والدمى عند مجرد الوصف ، ولكنه يحاول أن يجعلنا نؤمن بأن الطفلة قد اتخذت من عرائسها ودماها دنيا حقة لها كل مظاهر الواقع ، فهي تقص عليها ما تقص ، وهي تغضب منها تارة وترضى عنها تارة أخرى ، وهي تعالجها إذا أصابها الضر ، وهي تتعهدها ليل نهار .